الفصل الخامس

الحدائق الاسلامية التاريخية

١- مقدمة

٢- حدائق العالم العربى المفقودة

٣- حدائق قلعة الحمراء (اسبانيا)

٤- بستان شالامار باغ (باكستان)

٥- حدائق بلاد فارس (ايران)

١- مقدمة

يطرح الباحثون والمهتمون بموضوع الحديقة الإسلامية دائمًا عدة أسئلة أساسية أولها:

* أين توجد أهم الأمثلة وأروع النماذج للحدائق الإسلامية عبر التاريخ؟
* وماذا نعرف عمَّن قام بالتصميم الهندسى والإبداع الفنى والعمارة البيئية ثم الصيانة العلمية لمثل هذه الحدائق؟
* ومن هم الرواد الأوائل لفن تصميم الحدائق الإسلامية، وأين عاشوا، وما هى الفئات التى استعملت وزارت هذه الحدائق؟

ويلاحظ أن هناك تركيزًا كبيرًا بين المؤرخين وعلماء الفن وعمارة البيئة على الاهتمام بالحدائق الإسلامية فى بلاد الأندلس وكشمير وإيران فقط، واعتبارها الأهم للدارسين والباحثين والسياح. ويعتقد المؤلف أن هذه الأمثلة هى الأكثر شهرة بلا شك، ولكن ليست بالضرورة الأهم أو الوحيدة عبر تاريخ الأمة الإسلامية. وفى اعتقادى أن هذا الاهتمام الخاص يرجع لتواجد وبقاء هذه الحدائق إلى يومنا هذا؛ نظرًا لنجاح برامج الصيانة والإصلاح والترميم التى قامت بها الهيئات الحكومية فى هذه البلاد خلال العقود الماضية.

وبالرغم من تلاشى واندثار حدائق إسلامية أخرى فيجب ألا نغفل أن ما كتبه المؤرخون والرحالة عن حدائق تاريخية مختلفة يستدعى منا الاهتمام بأماكن وأقاليم أخرى، يبدو لنا أن أهميتها التاريخية قد لا تقل عما بقى لنا حاليًّا عبر العصور، وقد تمت الإشارة لها فى هذا الكتاب فى مواضع مختلفة. وعلى سبيل المثال فيجدر الإشارة إلى الوثائق التى كتبها سفراء الدولة البيزنطية فى عام ٩١٧، بعد زيارتهم لقصر الخليفة

العباسى ببغداد التى تؤكد أن فن تصميم الحدائق قد وصل إلى درجة عالية من الإبداع والرقى فى عاصمة الرشيد.

ولا شك أن هناك الكثير من الدلائل والمخطوطات التى تدعونا للاعتقاد أن العواصم والمدن الإسلامية المهمة، مثل دمشق والقاهرة وحلب وسامراء والقيروان وفاس ولاهور ومشهد وحيرات وشيراز وإسطنبول وسمرقند وبخارى لم يتم دراستها بدرجة كافية، ولم يتم بحث تاريخ المخطط العمرانى لها عبر القرون، وتدوين أماكن وأنواع الحدائق الخاصة والبساتين والساحات العامة التى شيدت بها فى عصور النمو والازدهار لكل مدينة، وسيستدعى هذا فى المستقبل تكاتف بين علماء التاريخ والآثار وأساتذة تاريخ الفنون وعمارة البيئة وتخطيط المدن وإخصائى العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ولعله من المهم أن نقتنع الآن أنه من الحكمة بل ومن الضرورى أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية على مستوى شمولى للعالم الإسلامى كله، وليس على نطاق ضيق لمنطقة جغرافية محدودة أو حضارة أو قومية بذاتها. وإذا اتبعنا هذا القول سنجد أن مهمتنا فى دراسة الحديقة الإسلامية أصبحت مهمة ضخمة فى حجمها لنا ستمتد لتشمل ثلاث قارات، هى: آسيا وأفريقيا وأوروبا. وإذا نحن ألقينا النظر على الأمثلة الباقية حتى يومنا هذا من الحدائق الإسلامية التاريخية، فسنجد أنها تشمل حقبة زمنية تقرب من السبعة قرون (فى رأى غالبية علماء التاريخ). ولكن إذا تعمقنا بعين البحث فى مصادر أخرى كالمخطوطات الأثرية والمؤلفات الأدبية والحفريات، فسنجد أن تاريخ الحديقة الإسلامية قد غطى ما يزيد عن ذلك بكثير.

وقد ساد الاعتقاد فى الأوساط العلمية دائمًا أن الحديقة الإسلامية التقليدية تشمل فقط حدائق الدولة الأموية فى الأندلس والمسماة فى الغرب «إمبراطورية المسلمين المغاربة ـ Moorish Empire»، وحدائق مدن فارس مثل أصفهان وشيراز وأشرف، وحدائق «إمبراطورية المغول ـ Mughul Empire» الإسلامية فى القارة الهندية. وقد حان الوقت لتصحيح هذا الاعتقاد الخاطئ عن طريق القيام بدراسات متكاملة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لبيان الأمثلة الأخرى خاصة فى الجزائر، والمغرب، وتونس، ومصر، وتركيا، وصقلية، والعراق، والجزيرة العربية، وأفغانستان، والقارة الهندية، وبلاد الصين، وأوزبكستان.

ومن المؤسف حقًا أنه بالرغم من أن منطقة البلاد العربية كانت دائمًا هى قلب العالم الإسلامى، إلا أننا نجد أن الحدائق الإسلامية التاريخية التى تم الحفاظ عليها إلى اليوم تقع فى أطراف هذا القلب كما هو الحال بالنسبة لحدائق أصفهان بإيران، وحدائق كشمير بالهند، وحدائق قصر الحمراء بأسبانيا، كذلك يبدو أن حدائق الصحن المحوطة بالمبانى كان الحفاظ عليها أو صيانتها أسهل عبر العصور. أما البساتين المفتوحة فقد اختفى أغلبها بمرور الزمن، أو تغير نوع استعمالها أو تم تدميرها لدوافع شتى اقتصادية أو اجتماعية.

ومن الأمثلة المعروفة عن الحدائق والبساتين التى تلاشت عبر الزمن حدائق مدينة الزهراء، وهى من أهم المعالم التى تعبر عن إنجازات حقلى عمارة البيئة وتخطيط المواقع فى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس كافة. ونظرًا لأن الحفريات والأبحاث التاريخية لهذا الموقع التاريخى تأخرت حتى نهاية القرن العشرين، فإن القليل من الكتب قد تناولتها بطريقة متكاملة، ومن المؤسف أن التنقيب عن مدينة الزهراء اقتصر على جزء صغير جدًا ولم يشمل المساحة الكافية. ولذا فإن المعلومات المتوفرة والأبحاث المنشورة لا زالت قاصرة وغير قادرة على الإفصاح عن تاريخ مدينة الزهراء وحدائقها وتفاصيل تخطيط المواقع التى تشملها. وبعد مرور ما يزيد عن خمسة قرون وهذه المدينة الساحرة مدفونة تحت طبقات النباتات وأكوام الردم المهملة؛ ولذا فقد اضطر الباحثون إلى الاعتماد أساسًا على مدونات الرحالة ومؤرخى هذا العصر وشعرائه.

٢- حدائق العالم العربى المفقودة

قد يصاب القارئ العربى بالإحباط أو قد يندهش عندما يجد فى هذا الفصل من الكتاب استعراضًا للحدائق الإسلامية من الهند وباكستان وإيران وأسبانيا فقط، بينما يخلو من أى أمثلة تصف وتشرح أى نماذج من العالم العربي. وقد واجهت المؤلف نفس الحيرة بل والانزعاج ودام تساؤله سنوات طويلة وترددت علامات الاستفهام فى ذهنه عن تعليل ذلك وتفسير أسبابه، هل من المعقول أن دمشق الفيحاء وحلب الشهباء وبغداد عاصمة الرشيد وحاضرة العصر العباسى الذهبى كانت بدون رياض أو بساتين ذات أهمية تاريخية؟ أم هل اندثرت معالم هذه الحدائق إلى الأبد؟ وهل أخفق كل الرحالة

والزوار والمؤرخين فى هذه العصور عن وصف أو تدوين ما رأوه أو سمعوا عنه؟ وما بال الشعراء والأدباء العرب فى خلال هذه القرون الطويلة؟ هل نظموا القصائد وتباروا فى وصف هذه الحدائق الإسلامية وخاصة ما شيده ورعاه خلفاء المسلمين وأمراء الدولة والوزراء والولاة على أقاليم وأمصار الإمبراطورية التى امتدت من الخليج العربى إلى المحيط الأطلنطى؟ والرد على كثير من هذه التساؤلات يعود بنا إلى ما ذكرناه فى مقدمة هذا الكتاب. نعم، احتلت الحدائق والبساتين مكان الصدارة فى تخطيط وتصميم المدن الإسلامية العربية منذ القرن السابع الميلادى وحتى انهيار الدولة العثمانية فى مطلع القرن العشرين، ولكن نظرًا لما عانت منه الأقطار العربية جميعًا من عصور تقهقر وانحطاط فى العقود اللاحقة تحت وطأة الاحتلال والتهميش ثم التغريب، فقد فقدت الكثير من المدن العربية الكثير من عناصر نجاحها ومعالم جمالها، وبمرور الوقت أصبحت العشوائية والتلوث والضوضاء والتفكك هو الطابع الغالب على هذه المدن. وهذا الكتاب هو نداء لكل مواطن عربى للتذكير أن الوقت قد حان لاستعادة الطابع الإنسانى لكل مدينة، ولتوفير المناطق الخضراء كجزء لا يتجزأ من النسيج العمرانى، ولتجسيد اتصال الإنسان بالطبيعة كمصدر للحياة حيثما يعيش، ولصيانة المثاليات الأخلاقية والجمالية والروحية من خلال صيانة الأرض والماء والهواء والزروع والزهور إلى جانب المساكن والعقارات والأسواق والطرق والمصانع، ولعله من الواجب أن تتكاتف الجهود كى نبدأ مسيرة بحث وتوثيق وترميم وصيانة كل المواقع الأثرية المهمة فى مدن وعواصم البلاد العربية كافة والنظر فى إعادة المدائن التاريخية وترميمها بدلًا من تدميرها، كما حدث فى الكثير من الحدائق التى تم إنشاؤها فى مصر فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حتى حكم أسرة محمد على.

ولعلنا نحتذى فى ذلك بالإنجازات الباهرة التى حققتها بلاد أخرى مثل الهند وباكستان وإيران وأسبانيا كما سيرد ذكره فى الجزء التالى من هذا الفصل. ويعتقد المؤلف أن الحاجة أكثر من ملحة فى حالة مدينة القاهرة، وهى أكبر مدن العالم العربى وأفريقيا، التى يسكنها ما يقرب من ربع سكان مصر والتى أشار بعض خبراء عمارة البيئة ونشر فى جريدة الأهرام المصرية أن نصيب كل ساكن من المناطق الخضراء لا يزيد عن ٤٠٠ سنتيمتر مربع، وأن معدلات تلوث الهواء فى بعض ضواحيها مثل حلوان والتبين ينتج

عنها ١٥٠ حالة إصابة صدر يوميًّا تستقبلها المستشفيات هناك، وأن معدلات الضوضاء بمناطق مثل الدقى والعتبة والهرم قد وصلت إلى أرقام خطيرة تهدد الصحة العامة، وأن التحجر الرئوى يصيب ٢٨ ٪ من التلاميذ فى المدن الصناعية مثل حلوان والسويس، وأن التهاب الجيوب الأنفية الناتج عن تلوث الهواء يصيب ٢٠ ٪ من المصريين، وأن تلوث المياة قد أدى إلى إصابة خمسة ملايين مصرى بأمراض الغدة الدرقية والانتشار الكبير فى أمراض الفشل الكلوى. وفى دراسة تم نشرها فى عام ١٩٩٧، ثبت أن نسبة كبيرة من أطفال مصر يعانون من قصر القامة أو نقص الوزن أو الأنيميا من جراء تلوث الماء والهواء والأطعمة ونقص الغذاء الصحى.

ولا شك أن الباحث المدقق سيندهش إذا ما قارن القاهرة فى القرن الواحد والعشرين والتى تعانى من هذا الخضم الهائل من مشاكل البيئة، مع ما ذكره المؤرخون والرحالة عن بساتين القاهرة وحدائقها وجمالها فى الماضى، وما تحويه من أجود أنواع الثمار والأشجار وشتى الأغراس. فنجد على سبيل المثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر فى الفترة ما بين ١٠٤٧ - ١٠٥٠م يستطرد فى مديح بساتين القاهرة بقوله:

«وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وبها بساتين لا نظير لها»

وينشد إبراهيم بن القاسم متشوقًا إلى القاهرة بعد خروجه منها عام ٩٩٦م فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ومتغزلًا فى اتساعها وجمال ما تحويه من بساتين.

وبالمقس والبستان للعين منظر ... أنيق إلى شاطئ الخليج إلى القصر
فكم بين بستان الأمير وقصره ... إلى البركة النضراء من زهر نضر

والقاهرة الكبرى التى نعرفها اليوم هى مدينة يزيد عمرها عن الألف عام؛ حيث بدأت أصلًا بمدينة صغيرة أنشأها عمرو بن العاص كعاصمة له بعد أن فتح المسلمون مصر، وقد أطلق على مدينته الجديدة اسم «الفسطاط»، وكان من أهم معالمها جامع عمرو بن العاص وكذلك المنطقة المسماة «بركة الحبش». وبعد قيام الدولة الطولونية تحت قيادة أحمد بن طولون، نقل عاصمة الدولة إلى موقع قريب؛ حيث أنشأ مدينة العسكر وفى وسطها المسجد المشهور بجامع أحمد بن طولون، ولا شك أن أكثر الحدائق شهرة فى هذا العصر هو بستان خمارويه نجل أحمد بن طولون، والذى استطرد فى وصفه المؤرخ

المصرى تقى الدين المقريزى وأشار إلى ما احتواه من أنواع الشجر والرياحين؛ حيث جلب له نباتات كثيرة من خراسان مسقط رأس ابن طولون، وزرع فيه الزعفران واستخدم عنصر الماء فى فساقى يتصل بها مجارٍ مائية معدة لسقى البستان، وغرسه بكافة أنواع الأشجار المحلية والمستوردة. ويتفق المؤرخون أن موقع البستان هو المنطقة بين جامع أحمد بن طولون وميدان صلاح الدين بالقلعة. ومن المعروف فى تاريخ علم النبات أن العرب المسلمين هم أول من أدخلوا نباتات الأشجار والفاكهة الآسيوية إلى مصر ثم أفريقيا، وأن لهم السبق فى نشر زراعة الفواكه الحمضية فى شمال أفريقيا وجنوب أسبانيا.

وبعد انتقال الحكم إلى الدولة الأخشيدية، انتقلت عاصمة الدولة إلى موقع آخر قريب، حيث أنشئت مدينة القطائع، وسار الإخشيديون على نهج الطولونيين فى الاهتمام بإنشاء الحدائق والبساتين الفاخرة. ويعتبر بستان الأمير كافور الأخشيدى من أهمها، وقد ذكرت بعض المراجع أنه أنفق فى تشييده أموالًا طائلة واستخدم الكثير من أساليب الفلاحة المستحدثة فى ذلك الوقت، مثل التطعيم والتقليم. ومع تأسيس الفاطميين لدولتهم فى مصر وإنشاء مدينة القاهرة، شهد فن تصميم الحدائق والبساتين وحقل الفلاحة تطورًا كبيرًا وانتشارًا غير مسبوق. فقد أنشأ الأمراء الفاطميون البساتين البديعة التنسيق ذات الأشجار الباسقة وتفننوا فى خلط عنصر المياه مع الأشجار فى سيمفونية عجيبة الصنع، وقد زاد من إبداع هذه المناطق الخضراء وجودها على مواقع تحتضن شاطئ النيل والخلجان المتفرعة منه.

وتعود المناطق المعروفة الآن بفم الخليج ومنيل الروضة وبركة الفيل والأزبكية وعين شمس والمطرية إلى جذور فى العصر الفاطمى وبساتينه، وقد تحولت الآن إلى كتلة عمرانية ضخمة تضج بالحركة وبآلاف المساكن الخرسانية والأسواق والشوارع الأسفلتية التى تعج بملايين السكان الذين يفتقدون مُتنفسًا للترويح أو فرصة للاستمتاع بالطبيعة.

ويجدر القول أن الاهتمام بالحدائق والبساتين استمر بعد سقوط الدولة الفاطمية وتأسيس الدولة الأيوبية التى يرجع لها الفضل فى إدخال زراعة البرتقال والنارنج إلى مصر، وقد جلب الملك الكامل عالم النبات الأندلسى الشهير ابن البيطار لخدمته فى مصر لعدة سنوات.

أما أمراء الدولة المملوكية، فقد تباروا فى زراعة الحدائق داخل قصورهم وحولها، وامتلكوا بساتين عامة كبيرة المساحة.

وعمومًا تؤكد الوثائق التاريخية أن بساتين القاهرة وحدائقها لفتت أنظار المؤرخين والرحالة باتساعها وجمالها وغزارة وتنوع مزروعاتها، إلى جانب براعة وسحر المواقع المقامة عليها.

ومن أهم من كتب عن القاهرة أو قام بإنشاء أشعار عن حدائقها وبساتينها هو إبراهيم بن القاسم (الشاعر الملقب بالرشيق)، وعالم النبات الرحالة عبد اللطيف البغدادى والرحالة الفارسى ناصر خسرو، وعالم النبات ابن مماتى المتوفى عام ١٢٠٩ ومؤلف كتاب «قوانين الدواوين»، والرحالة الأندلسى ابن سعيد المغربى المتوفى عام ١٢٨٦، والعلامة الإسلامى جلال الدين الشيرازى الذى تغزل فى حدائق وبساتين القاهرة قائلًا:

حى ربا مصر وجناتها ... وحورها العين وولدانها
ودورها الزهر وساحاتها ... وبين قصريها وميدانها
وأرضها المخصب أرجاؤها ... ونيلها الزاهى وخلجانها
ومنية السيرج لا تنْسلها ... وقرطها الأحرى وكتانها

وينضم لهذه الكوكبة ابن فضل الله العمرى المتوفى عام ١٣٤٩ الذى يستطرد فى مدح ربيع القاهرة وزهورها وثمارها وخلجانها ومتنزهاتها، ويجىء بعده فى القرن الخامس عشر العلامة القلقشندى المتوفى عام ١٤١٨ ليكتب قائمة نباتات وزهور وفواكه رآها فى زيارته للقاهرة. ومع ذلك، فسيظل أكثر المؤرخين شهرة ممن تحدثوا عن بساتين القاهرة هو العلامة تقى الدين المقريزى والمتوفى عام ١٤٤٠، وبعده ابن ظهيرة المتوفى عام ١٤٨٦ الذى أشار إلى تمييز القاهرة بالمآذن العالية والأشجار الناضرة والمياة الجارية والأزهار العطرة.

أما رحالة وعلماء القرن الخامس عشر مثل السيوطى المتوفى عام ١٥٠٥ وابن إياس المتوفى عام ١٥٢٤، فقد اهتموا بكثرة أنواع أشجار الفاكهة المزروعة بحدائق القاهرة،

وسماها أحدهم «مدينة الزهور السبعة» إشارة إلى خاصية متميزه لهذه المدينة فى ذلك الوقت ألا وهى وجود الزهور السبعة التى تجتمع فى وقت واحد، وهى: النرجس، والبنفسج، والبان، والورد، والنارنج، والريحان، والياسمين.

ولعل تشييد حديقة الأزهر الجديدة على الطراز الإسلامى فى منطقة القاهرة الفاطمية وافتتاحها عام ٢٠٠٥ يكون بداية صحوة جديدة لإنشاء سلسلة من المناطق الخضراء، لتكون رئه التنفس لهذه المدينة العملاقة، ومصدر صحة وجمال وحكمة لسكانها. ومن المعروف أن هذه الحديقة كانت هدية من الأغا خان، وقد بلغت تكلفتها ما يزيد عن ٣٠ مليون دولار، وقد بنيت على مساحة ٧٥ فدانًا فى موقع ملاصق للقاهرة الفاطمية وقلعة صلاح الدين الأيوبى.

وتجدر الإشارة إلى إضافة جديدة مفيدة لحقل تاريخ الحديقة الإسلامية، وهو الفهرس الذى أضافته الدكتورة «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D. Fairchild Ruggles» فى كتابها المنشور عام ٢٠٠٨، تحت اسم «المناظر الطبيعية والجنات الإسلامية ـ Islamic Gardens and Landseapes»، ويضم هذا الفهرس نبذه قصيرة عن موقع وتاريخ ووصف مختصر لحدائق إسلامية تاريخية فى أكثر من خمسة عشر بلدًا، مثل أسبانيا وصقلية والمغرب والجزائر وتونس ومصر وتركيا وبلاد الشام والعراق وإيران وأفغانستان وباكتسان والهند وكشمير. ومن الملحوظ أن المؤلفة أضافت خرائط ومساقط أفقية دقيقة لكثير من هذه المواقع، إلى جانب المراجع العلمية التى اعتمدت عليها ومعظمها باللغة الإنجليزية والفرنسية والأسبانية. ومن الجدير بالذكر أن هذا الفهرس يضم الحدائق الموجودة فيما يزيد عن ٤٠ مدينة فى العالم بما فيها قرطبة وغرناطة وأشبيلية، وباليرمو، وفاس والرباط ومراكش، والقيروان، والقاهرة، وإسطنبول، ودمشق وبغداد، وسامراء وأصفهان وكاشان وشيراز وتبريز وحيرات ولاهور وأجرا ودلهى ومدن كشمير القديمة.

وبناءً على سبق عرضه عن الوضع الحالى للحدائق التاريخية بالعالم العربى سنكتفى فى هذا الفصل باستعراض مختصر للأمثلة المهمة تاريخيًّا والباقية حتى الآن خارج البلاد العربية، والتى من الممكن القول بأنها من أهم العلامات البارزة فى تاريخ الحدائق الإسلامية وحقل عمارة البيئة فى عالمنا الحاضر.

حديقة الأزهر بمدينة القاهرة

انشئ هذا البستان الضخم على مساحة ٧٥ فدانا بجوار قاهرة الفاطميين الأثرية كهدية من مؤسسة الأغاخان، بتكلفة ٣٠ مليون دولار.

٣- حدائق قلعة الحمراء (أسبانيا)

وتسمى أحيانًا «حدائق قصر الحمراء»، وقد أنشأها فى منتصف القرن الثالث عشر السلطان محمد الأول والمعروف بـ «ابن الأحمر»، وهو أول ملوك الدولة الناصرية (١٢٣٢ - ١٢٧٢).

ويجب الإشارة إلى أن الحكم الإسلامى فى أسبانيا بدأ فى عام ٧٥٥ على يد الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل، وكان عبد الرحمن من القليلين الذين نجوا من أيدى العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية فى دمشق عام ٧٥٠. واستطاع تأسيس الدولة الإسلامية، واتخذ قرطبة عاصمة لها؛ وبهذا أصبحت بلاد الأندلس إقليمًا مهمًّا على خريطة العالم فى هذا العصر.

وبقيت دولة الأندلس فى أسبانيا تحت ظل حكومة مركزية حتى القرن الحادى عشر عندما انقسمت إلى دويلات صغيرة وإمارات متعددة يحكم كل مدينة أمير من أمراء البربر وأمراء بنى أمية، وكان أحدهم هو السلطان محمد الأول بن الأحمر مؤسس قلعة الحمراء، وكان حاكمًا على مدينة غرناطة بجنوب أسبانيا. وتقع هذه القلعة على هضبة شديدة الانحدار بشرق المدينة؛ مما يسمح لسكان القصر بالاستمتاع بمنظر غروب الشمس عند إطلالهم على المدينة من أعلى وعلى خط الأفق البعيد.

وتصل مساحة القلعة إلى حوالى أحد عشر فدانًا، وتشمل عدة حدائق صحن محوطة بالمبانى أو الأسوار وأكثرها شهرة هو «صحن الأسود ـ Court Of The Lions» وكذلك صحن الريحان أو «صحن البركة ـ Court Of Myrtle،» ويضم مجمع قلعة الحمراء عناصر أخرى مهمة مثل «ديوان السفراء ـ Hall Of The Ambassadors» وفناء السلطان و«قاعة الأختين ـ Hall Of The Two Sisters» إلى جانب برج قمارش وجدران الحصن المحيطة والقصر الملكى والمعروف «الكازار (القصر) ـ Alcazar».

وقد تم تشييد المبانى والحدائق داخل القلعة على مراحل زمنية؛ حيث أضاف كل سلطان جديد حديقة أو بهوًا أو مبنى جديدًا على المجموعة. وعلى سبيل المثال، فقد أنشأ الملك يوسف الأول فى منتصف القرن الخامس عشر صحن البركة / صحن الريحان .

ويختلف المؤرخون وعلماء تاريخ الفن فيما إذا كان صحن الأسود المشهور فى قصر

الحمراء يعود إنشاؤه إلى القرن الحادى عشر أو إلى القرن الرابع عشر أثناء ولاية السلطان محمد بن الأحمر الخامس، ويعتقد بعض المؤرخين أن المبنى المحيط بهذا الصحن قد بنى لتجميل الصحن، ولتحديد الفراغ المعمارى، على عكس ما هو سائد اليوم فى حقلى العمارة والتصميم العمرانى.

وعند سقوط دولة الإسلام فى أسبانيا وهزيمة جيوشها أمام جحافل الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا فى عام ١٤٩٢، استولى الحكام الجدد على قصر الحمراء وملحقاته. وفى القرون التالية، عانى القصر من بعض الإهمال، بل وتجرأ الملك شارل الخامس فى منتصف القرن السادس عشر على هدم بعض أجنحة المجموعة لبناء قصر له على الطراز الإيطالى بدون تناسق وتناغم مع العمارة الإسلامية الغالبة على منشآت الحصن المختلفة.

ونظرًا لاختفاء معظم الحدائق الإسلامية التى أنشئت بغرناطة خارج جداران القلعة الحمراء عبر القرون المتعاقبة، فقد اعتمد أكثر الباحثين على حدائقها كنموذج أساسى لدراسة عناصر تصميم حدائق الأندلس بصفة عامة.

ويختلف مع هؤلاء تمامًا فى هذا التعميم البروفيسورة «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D.Fairchild Ruggles» إذ تذكر فى أحد كتبها عن الحديقة الإسلامية:

«إن هذا التعميم قد أغفل عاملًا تاريخيًا مهمًا وهو أن قصر الحمراء قد تم تشييده فى عصور الانحسار والتراجع لدولة الأندلس الإسلامية، بينما بنيت مدينة الزهراء مثلا فى صدر الوجود الأموى وقمة ازدهاره وسيطرته على مدن الأندلس».

وعمومًا، فإن حسم هذا الخلاف قد يستدعى القيام بأبحاث مكثفة للمخطوطات القديمة التى تحتوى على وصف الحدائق الإسلامية من خلال قصائد الشعراء الذين عاصروا هذه الحقبة من أمثال ابن زمرك وابن حقان، كما يستدعى انتظار نتائج التنقيب والبحث الجارى فى الموقع الأثرى لمدينة الزهراء.

ومن المهم الإشارة إلى أنه بعد فترة طويلة من الإهمال والتدهور، أعلنت الحكومة الأسبانية فى عام ١٨٧٠ أن قلعة الحمراء أصبحت موقعًا من المواقع القومية التراثية، وبدأت أعمال الترميم والصيانة والتطوير منذ هذا التاريخ حتى صارت الآن صرحًا

جاذبًا لملايين السياح والباحثين، كما تم ترشيحها للانضمام للقائمة الجديدة المقترحة لعجائب الدنيا السبع.

ومن المعروف أن أهم الكتب التراثية التى تحدثت عن تصميم الحدائق الإسلامية فى الأندلس هى كتب ابن العوام وابن ليون وابن وافد. ورغم أن مخطوطات هؤلاء لم تكن أبحاثًا أصيلة بل تطويرًا وتنظيمًا لما هو متداول عن عمارة البيئة وهندسة البساتين، إلا أنها تعتبر المراجع الوحيدة التى ظلت محفوظة بشكل كامل حتى يومنا هذا، وتتميز هذه الكتب بالتوجيهات الدقيقة فى موضوع اختيار الموقع للمسكن والبئر والمظلة الخارجية أو الخيمة، وأماكن زراعة الأشجار وعلاقتها بالحديقة والاتجاهات الأصلية.

أما فى العصر الحديث فيعتبر كتاب المؤلف الأمريكى «واشنطن إيرفينج ـ Washington Irving» من أفضل كتب الرحلات الذى تناول قصر الحمراء وتاريخه.

وقد ولد واشنطن إيرفينج عام ١٧٨٣ فى أمريكا، وهو ينتمى إلى الجيل الأول من الكتاب الأمريكين، وقد نال شهادة الحقوق ولم يمارس المهنة إلا نادرًا وانصرف للكتابة، وقد زار هذا الرجل بلاد الأندلس واستقر فيها لمدة عامين باحثًا عن كنوز الآثار والأدب العربى والثقافة الإسلامية. وبعد جمعه هذه المادة الثرية، أصدر كتابه الشهير المسمى «الحمراء ـ The Al Hambra» فى الولايات المتحدة، ولاقى نجاحًا كبيرًا عند توزيعه هناك. وبعد سنوات معدودة، رجع إيرفينج إلى أسبانيا كسفير لبلاده فيها، ويعتبر من أوائل المستشرقين الأمريكين الذين اهتموا بالثقافة العربية الإسلامية. وقد جاء كتاب «الحمراء» فى واحد وثلاثين فصلًا، شملت رحلات المؤلف فى بلاد الأندلس ووصف الآثار الباقية من الحضارة العربية، ويحتوى الكتاب أيضًا على فصول خاصة عن قلعة الحمراء مثل «فى داخل قصر الحمراء، والقاعات الغامضة، وصحن الأسود، والحكم وكاتب العدل، والحمراء فى ضوء القمر، وسكان الحمراء، وزوار الحمراء، وبهو السفراء، والمؤلف فى وداع الحمراء، وأسطورة وردة الحمراء» إلى جانب القليل من الحكايات الأسبانية. وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذ إبراهيم الإبيارى فى الستينيات، وصدر عن دار المعارف فى مصر، ولكنه للأسف لم يلق الاهتمام الكافى فى الدوائر الثقافية والعلمية فى العالم العربى.

ومع بدايات الثورة المعلوماتية الحديثة والتطور الجبار فى مجال الحاسوب

الإلكترونى، حدثت طفرة متوازية فى تدوين وتوثيق تراث الأندلس الإسلامى. ويتضح هذا فى المواقع الجديدة على الشبكة العنكبوتية الدولية للمعلومات، مثل الموقع المسمى بالأندلس http//www.andalucia.com، ويحوى هذا الموقع أقسامًا تركز على وصف مكتوب وعرض بالصور والخرائط لأماكن مهمة مثل مدينة الزهراء، وما تبقى من قصور ومساجد وحدائق الأندلس. وفى عام ٢٠٠٦، ساهمت المجلة العالمية «سعودى أرامكو وورلد ـ Saudi Aramco World» بدراسة عن حدائق قصر الحمراء عن طريق إنشاء موقع جديد على الشبكة المعلوماتية تحت عنوان http://www.saudiaramcoworld.com، وتحوى هذه الدراسة على مجموعة هائلة من الصور المجسمة والجولات المرئية المدعومة بالتعليق الصوتى والتى تسمح للمشاهد بتقريب اللقطات وتغيير زوايا الرؤية والعروض البانورامية، وقد تم إعداد هذا البرنامج بالتعاون بين المجلة وقسم الفنون الجميلة «كلية ويليامز ـ Williams College» بالولايات المتحدة الأمريكية.

٤- بستان شالامار باغ (باكستان)

يقع هذا البستان فى مدينة لاهور بباكستان، وهو مقام على مساحة ٢٠ فدانًا، وقد أنشأ هذا البستان الإمبراطور «شاه جهان» ليتريض فيه مع زوجته الحبيبة «ممتاز محل». وشالامار باغ كلمة فارسية معناها «مقر الحب والسعادة».

ولا شك أن شاه جهان تأثر فى طفولته بزيارة بساتين كشمير الرائعة، التى تفوقت فى تصميمها وتخطيط موقعها عما كان موجودًا من قبل فى مدن مثل أجرا ولاهور ودلهى؛ ولهذا فيعتقد المؤرخون أن الفكرة الرئيسية التى غلبت على ذهنه عند إنشاء شالامار باغ كان إعادة حلم طفولته وذكرياته فى كشمير، وتحقيقه على ضفاف نهر رافى فى مدينته الجديدة لاهور.

ويجب الإشارة هنا إلى وجود ثلاثة بساتين بالاسم نفسه، ولكن فى مدن مختلفة غير لاهور. أما الآخران، فموجودان فى مدينة دلهى بالهند ومدينة سرينارجار بإقليم كشمير. ويعتقد أغلب المؤرخين أن بستان شالامار باغ المقام فى لاهور هو تحفة فن تصميم الحدائق، ويتكون البستان من ثلاث رياض متعاقبة على مستويات مختلفة من

الأرض، إذ ينخفض كل مستوى بمقدار خمسة أمتار عن الذى يسبقه. والبستان مصمم على الطراز الفارسى، وبه ثلاث بحيرات تهمر فيها المياه فى صورة شلالات بين كل مستوى وآخـر، وتزينها ٤٠٠ نافورة، ويجلب إليها الماء بقناة خاصة من نهر مجاور، وفى البستان مقاصير ملكية مبنية بالرخام يحيط بها آلاف الأشجار من السرو والحور، والفاكهة وخمائل الزهور ذات الرائحة الزكية.

ويعتقد بعض المؤرخين مثل «جون بروكسى ـ John Brooks» أن فن تصميم الحديقـة الإسلامية قد بلغ قمة نضجه فى بستان شالامار باغ المقام فى إقليم كشمير الذى أنشأه الإمبراطور «جاهان جير» والد الإمبراطور شاه جاهان، ويفسر بروكسى تقييمه هذا بناءً على اقتراب عناصر التصميم من أوصاف وإيحاءات جنة الفردوس كما شملها القرآن الكريم والسنة النبوية.

وبغض النظر عن التقييم الفنى واختلافه من ناقد إلى آخر أو بين مؤرخ وآخر، فيميل المؤلف للاعتقاد أن حدائق دولة المغول عمومًا تشتهر بعدة مميزات مثل ينبوع متدفق من الجبال المحيطة، وحقول منحدرة عبر الوادى ومساحات شاسعة، وبراعة ملحوظة فى فكرة تصميمها، وفى أعمال هندسة الرى، واختيار المواقع فى أحضان الجبال أو على ضفاف الأنهار، كما تتميز عناصرها الإنشائية بطراز معمارى رفيع وزخرفة فنية باهرة.

وتبدو البراعة فى اختيار ومعالجة الموقع واضحة فى علاقة شالامار باغ بالبيئة الطبيعية المحيطة به فى الطرف الشرقى لمدينة لاهور. ولو تصور القارئ رحلة الزائر لهذا البستان فى تلك العصور؛ لأدرك العلاقة الوثيقة بينه وبين النهر المجاور «نهر رافى ـ Ravi River»، فقد أقيم البستان بمفرده على الضفة وامتدت مصاطبه الثلاثة محتضنة الوادى فبدأ البستان على مرمى البصر وكأنه واحة خضراء وارفة منتظمة على عكس بيئته المحيطة الجافة، والمسطحة، والمليئة بالأعشاب البرية.

وتعتبر حقبة حدائق إمبراطورية المغول فى القارة الهندية من أهم العصور لأى باحث أو دارس لفن تصميم الحدائق، وتعود هذه الأهمية لاعتبارات متعددة، أهمها أن أعدادًا ليست بقليلة قد تم إنشاؤها فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وما زالت موجودة أو مدونة بدقة من خلال مذكرات الرحالة الأوروبيين، أو فى الرسومات المحفوظة أو فى المواقع الأثرية الكثيرة والموجودة حتى يومنا هذا. وقد احتلت دولة

بساتين المغول الإسلامية

تشتهر حدائق دولة المغول فى شبه القارة الهندية بوجود ينبوع متدفق من الجبال المحيطة، ويحيط بالبستان حقول زراعية عبر الوادى الممتد حوله.

المغول أجزاءً كبيرة من بلاد فارس وتأثرت بشدة بحضارتهم؛ نظرًا لأن قبائل المغول لم تكن صاحبة حضارة أو فن.

ومن المعروف تاريخيًّا أن «تيمورلنك» جلب أعدادًا كبيرة من الفنانين والمعماريين والشعراء والحرفيين ليساعدوا فى إنشاء عاصمة مملكته الجديدة فى مدينة سمرقند، وهى التى تعتبر حتى اليوم قمة تاريخية فى فنون العمارة وتخطيط المدن وتصميم الحدائق، وقد سجل «دى كاليفيجو ـ Decalvijo» فى كتاباته الرسمية وصفًا مسهبًا لسمرقند عندما كان يعمل سفيرًا لأسبانيا لدى الإمبراطور تيمورلنك.

وقد انتشر فن تصميم الحدائق عند إمبراطورية المغول الإسلامية بالقارة الهندية فى القرن الخامس عشر؛ أى بعد سنوات معدودة من رحلة كرستوفر كولومبس واكتشافه القارة الأمريكية. وبلغ هذا الفن قمة ازدهاره فى خلال قرن ونصف قرن، أى إنه يتوازى تاريخيًّا

مع الحدائق الإيطالية المشهورة فى عصر النهضة. وتعتبر مدينة لاهور عاصمة البنجاب وكذلك مدينتا أجرا ودلهى أعظم مراكز الإمبراطورية المغولية، تلك الإمبراطورية التى أسسها القائد الفاتح «بابور» أى «الأسد»، وهو سليل تيمورلنك وجنكيز خان، وهـو أول من عبر ممر خيبـر فى أفغانستان ليفتح القارة الهندية، ويعتبر الإمبراطور «بابور» هو الرائد الأول وألمع الملوك التى اقترنت أسماؤهم بحدائق المغول الإسلامية، وقد ولد فى عام ١٤٨٣ وتوفى فى عام ١٥٣٠، وحاز أهمية خاصة لمساهمته فى إنشاء الكثير من الحدائق منذ صباه حينما حكم مملكة أوزبكستان ثم بعد انتقاله لمدينة كابول، حيث اتخذها عاصمة لمملكته وأنشأ فيها أول حديقة المسماة «روضة الوفا ـ Bagh-i-wafa».

وقد التزم بابور فى تصميم حدائقه فى كابول وجلال أباد ودلهى وأجرا رغم اختلاف جغرافية موقع كل منها بالطابع الهندسى والخطوط المستقيمة فى كل عناصر التصميم.

وقد اندهش الشعب الهندى من إصراره على تحويل أى نهر أو جدول أو ترعة أو مجرى مائى من خطوط منحنية طبيعية إلى قناة مستقيمة أو شبكة هندسية متعامدة، كما هو العرف فى حدائق بلاد فارس وحدائق مدينة سمرقند التى بهرته منذ كان طفلًا صغيرًا.

وبالرغم أن الإمبراطور بابور قد حمل معه إلى سفوح بلاد الهند الشديدة الحرارة والمليئة بالعواصف الترابية الأفكار المتميزة للحديقة الإسلامية المنتشرة فى بلاد فارس، إلا أن أولاده وأحفاده وخاصة من كان منهم ذا ولع بفن تصميم الحدائق وعلوم النباتات قد تحولوا بهذا الحقل الفنى إلى آفاق جديدة واسعة، وأضافوا من خلال أعمالهم جوانب متميزة عبر التاريخ. ويظهر واضحًا أمام أى ناقد فنى أو مؤرخ مدقق للحدائق التى شيدت فى عصر دولة المغول بالقارة الهندية أن كل من ساهم فى هذه التصاميم لا بد وأن يكون على درجة عالية من الحساسية المرهفة، وعلى دراية متعمقة بالقواعد الأساسية للفنون الجميلة، وعلى فهم تفصيلى لعلوم النبات وتقنية هندسة التربة والرى والصرف.

وتشير بعض الوثائق التاريخية والرسوم الأثرية إلى أن فريق التصميم كان يضم فى كثير من الأحيان الملك أو الأمير الذى يمتلك القصر أو الدار. وعمومًا فإن أغلب حدائق المغول الشهيرة بنيت فى عصر الأباطرة الستة الأوائل بداية من بابور، وهمايون، وأكبر، وجيهابخير، وشاه جيهان، وأخيرًا أورنجزيب.

ويبدو أن غـزو الإمبراطور أكبر لإقليم كشمير فى عام ١٥٨٦ وضمه إلى إمبراطوريته كان نقطة تحول فى فن تصميم الحدائق، خاصة وأن البساتين التى تم إنشاؤها فى عصر ابنه جيهان جير وحفيده شاه جيهان هى أروع ما أنتجته دولة المغول فى عصورها الذهبية، وأشهرها شـالامار باغ بمدينة لاهـور وتاج محل فى مدينة أجرا ونيشات باغ بكشمير.

ومن الواجب التنويه أن دراسات وبحوث الحدائق الإسلامية لدولة المغول قد حظيت بنصيب كبير من الاهتمام فى أوروبا وأمريكا الشمالية، ويبدو هذا واضحًا فى التعاون الملموس بين متحف سميثسونيان الأمريكى «معهد سميثسونيان ـ Smithsonian Institute» مع مجموعة كبيرة من أثرياء وأطباء الجالية الباكستانية فى الولايات المتحدة، ووزارة الثقافة الباكستانية ووزارة الخارجية الأمريكية، وكلية العمارة فى لاهور، إلى جانب الكثير من الأكاديميين المهتمين بدراسات وأبحاث الحدائق التاريخية فى عصور إمبراطورية المغول بالقارة الهندية. وقد تبلور هذا التعاون الوثيق فى تطوير دائرة معارف متكاملة باللغة الإنجليزية عن الحدائق الإسلامية التاريخية فى باكستان، وبدأت فى العمل منذ عام ٢٠٠٢ على موقع الشبكة العنكبوتية الدولية تحت العنوان التالى http://www.mugholgardens.org، ويحتوى هذا البنك المعلوماتى المتميز على شرح مستفيض وخرائط ورسومات وصور لأحد عشر موقعًا لأهم البساتين الإسلامية التاريخية فى أقاليم باكستان المختلفة. وتتولى حاليًا شركة «سميثسونيان للإنتاج ـ Smithsonian Production» إدارة المشروع تحت إشراف المتحف الوطنى الأمريكى فى واشنطن. ويبدو أن السياح وكافة زوار باكستان يستفيدون فائدة جمة من المعلومات الموثقة على هذا الموقع، كما يستمتعون بمنتخبات الصور والموسيقى التى تصاحب هذه المعلومات.

٥- حدائق بلاد فارس (إيران)

ترجع جذور حدائق الفرس تاريخيًا إلى القرن السادس قبل الميلاد خلال عصر الإمبراطور سايروس الكبير، خاصة فى قصر باسرجادا القريب من مدينة أصفهان. وبعد دخول الإسلام إلى بلاد فارس فى القرن الثامن، أصبح تأثير هذه الحدائق على الكثير من الأقطار الإسلامية الأخرى واضحًا.

وقد تطور حقل عمارة البيئة فى فارس عبر القرون كما ظهر جليًّا فيما شيد من حدائق وبساتين ومدن وميادين خلال عصر الدولة الغزنوية والتيمورية ثم الدولة الصفوية وأثناء فترات حكمهم لبلاد فارس وبعض الدول المجاورة، وتعتبر أصفهان وشيراز وتبريز وقزوين وكاشان وكرمان من أهم المدن التى احتوت على أمثلة بديعة من الحدائق الإسلامية المتميزة فى بلاد فارس.

وقد احتوى الشعر الفارسى فى تلك الأزمان على قصائد رائعة تتغزل فى هذه الحدائق المقامة أو فى حدائق تخيلية فى ذهن شعراء هذا العصر من أمثال فخر الدين جورجانى وصائب التبريزى، وقد كان سائدًا فى أشعار هذه الحقبة تشبيه المحبوبة بالحديقة الجميلة وما يطرأ عليها من فرح وبهجة وسرور أو حزن.

ويعتقد الكثيرون من مؤرخى عمارة البيئة مثل «ريتشارد فولتز ـ Richard Foltz» أن فكرة النموذج السماوى فى تصميم الحدائق الإسلامية قد نبع من تراث بلاد فارس فيما قبل البعثة المحمدية، وتدريجيًّا بعد الفتح الإسلامى لفارس، تأسلم هذا النموذج واستوحى من آيات القرآن الكثير من المصطلحات الفنية لإثراء هذه الحدائق ولتعميق الأبعاد الفلسفية والروحانية لمخطط كل بستان وروضة ومدينة.

وتعتبر مدينة أصفهان بالذات درة المدائن الفارسية الخضراء، فقد تم تخطيطها على هيئة بستان كبير فى عصر «شاه عباس»، وقد كان أهم إنجاز لهذا الملك هو تطوير مساحة شاسعة من الأرض بين مدينة أصفهان القديمة وبين نهر «زاينده ـ Zayandeh»، وإضافة طريق «شاهر باغ ـ Chahar Bagh Av»، وكذلك تشييد «جسر خو اجو ـ Khwaju Bridge» الذى يعتبر تحفة فنية فى حقل التصميم العمرانى منذ بنائه عام ١٦٥٠ وحتى يومنا هذا.

ولا شك أنه ما زالت هناك بعض الحدائق الإسلامية التاريخية متبقية فى إيران الحديثة، ولكن لا يوجد بينها موقع أثرى كامل المعالم يمكننا من الادعاء أنه يمثل نموذجًا لروح ومضمون الحديقة الإسلامية فى تلك البلاد، كما كانت فى أزهى عصور حضارات الدولة الغزنوية أو التيمورية أو الصفوية. فما تبقى من تلك الحدائق والبساتين إما قد تم إهماله وتدهورت صيانته حتى تبقى منه الهيكل العام فقط الذى من خلاله قد نتخيل منه تصورًا عامًّا للتصميم ولكن لا نتعرف منه على تفاصيل كافية لعناصره النباتية والمائية والتكوين

المرئى وتشكيل الألوان والملمس، وإما حدائق قد تم تحويرها وتغيير معالمها لدرجة التشويه والتلاشى، وذاب روح التصميم فى تشكيلات أجنبية غريبة على تراث الحديقة الإسلامية الأصيل.

ومن الممكن تقسيم الحدائق الإسلامية فى بلاد فارس إلى نوعين رئيسيين:

١- **حدائق مدرجات**: وأغلبها شيدت فى أحضان الجبال والتلال.

٢- **حدائق مسطحة**: وأغلبها شيدت فى الأراضى المنبسطة والسهول والوديان.

ومن أمثلة حدائق المدرجات «باغى تخت ـ Bagh - E - Takat» فى مدينة شيراز و«باغى شاه جولى Bagh –E-Shah Goli» فى مدينة تبريز.

ويشير الباحث الأمريكى آرثر إيفانز من جامعة كاليفورنيا أن كلا البستانين اللذين تم إنشاؤهما فى عصر الدولة الكجارية قد أصبحا الآن فى حالة من التردى وسوء الصيانة بحيث يصعب ترميمهما مستقبلًا. وعند التحليل المتأنى لكلا الصرحين من وجهة نظر العمارة البيئية، نجد أن الفكرة التخطيطية متشابهة من حيث اختيار الموقع، فقد اعتمد على توفر ينبوع مائى تم اكتشافه فى الجبل المجاور للمدينة، وعلى أساسه تقررتشييد هذا البستان. أما من حيث عناصر التصميم فيضم الموقع عدة روضات على مستويات متدرجة الارتفاع ويتخللها فى المنتصف حوض ينسكب فيه الماء من سفح الجبل إلى أسفل البستان على شكل شلالات صغيرة، كما تضم المجموعة «دايريش» أو بحيرة صغيرة ترمز إلى الأنهار الجارية فى جنات الخلد، وأقيم على ضفتها مبنى صغير أو ما يسمى فى الفارسية «كشك» للاستمتاع بالمنظر الجميل ونسائم البحيرة العليلة. أما الأشجار التى بقيت حتى الآن فإنها تشير أن مصمم هذه الحدائق استخدم الموالح، مثل أشجار البرتقال والليمون إلى جانب أشجار الصنوبر والكثير من الزهور والورود.

أما الحدائق الفارسية المسطحة فتضم بستان «باغى شاه ـ Bagh –E-Shah» فى مدينة فين بمنطقة كاشان، وباغى إيرام بمدينة شيراز، التى تعتبر أضخم حديقة فى إيران اليوم بالرغم من تلاشى معالمها الأصلية كبستان رغم بقاء المبانى المعمارية التقليدية لهذا العصر بحالة جيدة، ويشير إلى اهتمام المصمم الأصلى باستمرارية العلاقات بين الفراغات الخارجية للبستان والفراغات الداخلية للمبانى.

الخاتمة

الفن الإسلامى ليس بالضرورة هو الفن الذى يتحدث عن الإسلام، وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر أو الحث على اتباع الفضيلة، وليس هو الحقيقة المجردة للعقيدة، مبلورة فى صورة فلسفية.

ليس هذا أو ذاك فنًّا على الإطلاق، إنما هو الفن الذى يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود. وهو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الإسلامى لهذه المعانى.

كما أشار الكاتب محمد قطب: «إن الفن الإسلامى هو الفن الذى يهيئ اللقاء الكامل بين «الجمال» و«الحق»:

فالجمال حقيقة فى هذا الكون.

والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود».

نستخلص من الفصول السابقة لهذا الكتاب عدة نقاط أساسية وأهمها ما يلى:

أولًا: إن الحديقة الإسلامية تعتبر فنًّا مستقلًّا عن علوم النبات والبساتين أو فن الهندسة المعمارية بالرغم من علاقته الوثيقة بهما. ولا شك أن الحديقة الإسلامية فى تطورها عبر التاريخ قد أكدت أنها تعبر بوضوح عن ثقافة قوية نابعة من قيم أخلاقية متميزة، قائمة على حضارة راسخة.

وحيث إن حقل تصميم الحدائق الإسلامية هو بالضرورة تعبير عن مجتمع مسالم

يسعى لعمران الأرض ويحترم الطبيعة، فإنه من الضرورى دراسة وشرح وتقديم هذا التراث الرائع للمجتمعات العربية والغربية والعالمية على السواء، خاصة فى هذا القرن الذى تتهم فيه بعض وسائل الإعلام الغربية المغرضة الإسلام والمسلمين بأنهم أعداء للسلام وللإنسانية، والذى تتصادم فيه حضارات العالم بين من يندفع بقوة وحماس تجاه التكنولوجيا والعلوم وفكر العولمة والسوق المفتوح، وبين فئات أخرى تؤكد على مبادئ صيانة البيئة الطبيعية، وترشيد الاستهلاك، والحفاظ على التراث الحضارى للأمم، والالتزام بالمثل العليا تجاه مسيرة التنمية الاقتصادية.

ثانيًا: تؤكد لنا الشواهد أن الإنسان العربى واحتياجاته الإنسانية ومناخ بيئته المحيطة، ومعتقداته الدينية، وتكوينه الثقافى لا يتغير بطريقة شاملة. وبناءً على ذلك فمن المنطقى أن يظل تراثه الحضارى متمثلًا فى فن تصميم الحدائق بدون تغيير جذرى أو أساسى فى مبادئ وأهداف وعناصر تكوينه الفنى والمعمارى.

ثالثًا: نحن اليوم إذ ندعـو إلى إحياء التراث الفنى وإلى التمسك بالشخصية الإسلامية العربية فى تصميم الحدائق وتخطيط الموقع، فليس القصد أن نتمسك بحرفية الطراز الإسلامى التاريخى وتفصيلاته، وبالتالى نطلب إيقاف حركة الإبداع والتجديد. ليس هذا هو القصد بأى حال من الأحوال؛ ذلك أن إحياء التراث الحضارى الإسلامى يعنى ببساطة التجديد الواعى والحكيم على أساس استيعاب مميزات الأصالة التراثية وابتكارات العصر، كما يعنى أن يصبح تصميم مواقع الحدائق والشوارع والميادين والمساجد والمبانى العامة فى المدينة العربية ذا شخصية واضحـة، وليس تقليدًا حرفيًّا للآخرين، وفى الوقت نفسه يكون ملائمًا لظروفنا المعاصرة وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية.

رابعًا: الواجب أن نذكر أننا لا نلوم المعماريين أو مخططى المدن، أو الجهات الحكومية، أو الجامعات العلمية فى العالم العربى أو غيرهم، فذلك أمر لا يفيد الآن فى تدارك ما حدث، وذلك فضلًا عن أن هناك العديد من العوامل التى أدت إلى الوضع الحالى، ولكننا نأمل أن يكون للمحاولات الجادة المصداقية فى المستقبل والاستمرارية والانتشار فى الأقطار العربية المختلفة سواء فى المشرق أو المغرب العربى.

ولعل الجميع قد اقتنع بعد قرون من التغريب والتقليد والحيرة الثقافية أن التميز

الحضارى والاحتفاء بالتراث الفكرى والروحى لكل أمة من الأمم، وعلى رأسه فن تصميم الحديقة الإسلامية هو ضرورة لإثراء المستقبل وتطوير الحاضر.

خامسًا: من ناحية أخرى فإن تكن المدينة العربية قد فقدت هذا العنصر الحيوى الذى ميزها عبر التاريخ، وهو عنصر العلاقات المتناسقة بين البيئة الإنسانية بمبانيها ومنشآتها وبين بيئتها الطبيعية بعناصرها المختلفة، فما زال أمامنا فرصة لإعادة تغليب هذا التراث الحضارى بعد تطويره بما يتلاءم مع العصر، وتطبيقه فى المدن العربية الجديدة والأحياء السكنية التى تتجه النوايا إلى تطويرها وتجديدها فى شتى أنحاء العالم العربى بالذات. وبإيجاز، فإن الفرصة ما تزال واسعة أمام إعادة الوجه العربى الإسلامى الأصيل لحدائقنا ولتصميم المواقع خلال مدننا.

وشعبنا العربى الذى عرف التوطن الحضارى قبل الكثير من شعوب العالم المتقدمة الآن، قادر على النهوض فى هذا المجال، وتجيش فى صدوره الكثير من الآمال والطموحات فى مدن وأحياء سكنية أفضل جودة مما هو سائد الآن، وبالتالى إلى غدٍ أكثر إشراقًا.

سادسًا: إن الاهتمام بتطوير ودراسة تاريخ الحديقة الإسلامية لا يعنى الاهتمام بالطبقات الثرية أو أغنياء القوم وأصحاب القصور، فقد أشارت الدراسات إلى أن الحديقة الإسلامية بأنواعها المختلفة لم تكن حكرًا على هذه الطبقات العليا من المجتمع، بل انتشرت فى كل ضواحى وأركان المدن الإسلامية القديمة. إن الاهتمام بالحديقة الإسلامية يعود أساسًا إلى أنها كانت قمة الإبداع فى حقل عمارة البيئة وتحفة الإنجاز فى مجال تصميم المواقع، وستظل الحديقة مصدرًا مهمًّا للرمزية والتصوير الرومانسى فى خيال الشعراء العرب فى الماضى والحاضر، وستظل نموذجًا حيًّا لثقافة ثرية وأفكار متدفقة ومثاليات رفيعة وروحانيات نبيلة.

سابعًا: من المهم الإشارة إلى أن الحديقة الإسلامية ليس لازمًا أن تكون حديقة تم تصميمها بواسطة إنسان يدين بالإسلام، كما أنه ليس ضروريًّا أن يتم إنشاؤها فى مجتمع مسلم، ولكن المهم فى هذا النوع من الحدائق هو تميزه بمراعاة مبادئ تصميم معينة مثل الاقتصاد فى استعمال المياه، وتوفير الخصوصية لمستعمليها، والتربية على تحقيق التوازن بين الاستعمالات الانتفاعية والجمالية، ومخاطبة الحواس الخمسة، إلى جانب

ملامسة الجانب الروحى من خلال الرموز أو الأقوال المأثورة وأبيات الشعر المحفورة على جداريات الحديقة وعناصرها المعمارية، إنه يستخدم عناصر فنية معروفة، ويسعى إلى تحقيق أهداف محددة من وراء هذا التصميم. ومن الواضح من الآثار الباقية من عصور الإمبراطورية الإسلامية أن هذه الحدائق قد انتشرت فى ثلاث قارات هى: آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأنها اتسمت بطابع فريد وشخصية متميزة رغم تباعد المسافات بين بعضها والآخر، ورغم اختلاف قوميات من قاموا على تصميمها وإنشائها، بل وأيضًا تفاوت أوقات إنشائها، فقد امتدت نماذج الحديقة الإسلامية من القرن الثانى عشر إلى القرن التاسع عشر. وتتعدد تسميات الحديقة الإسلامية فى أدبيات المجتمعات العربية والإسلامية لتشمل ألفاظًا ومصطلحات شتى، مثل «حديقة» و«بستان» و«جنة» و«روضة» و«متنزه».

ثامنًا: إن دور التعليم الجامعى فى مجال إعداد الطاقات البشرية لحقل عمارة البيئة يبقى دورًا مهمًّا وأساسيًّا وغير تقليدى، فالمطلوب فى المناهج المقررة أن تقدم لكل طالب مزيجًا من التفكير العلمى والإبداع الفنى والحساسية الثقافية والمعرفة بالإرث التاريخى؛ ولذا فإن التحدى الحالى فى حقل عمارة البيئة يشمل ندرة العاملين فى هذا المجال، والاحتياج إلى تنوع الدراسات الأكاديمية الخاصة بإعداد الخريجين؛ لأن حاجة المدن العربية الآن تتعدى توفير إخصائى عمارة البيئة العادى أو النمطى، فتحديات البيئة العمرانية تستدعى إلى جانب هذا مهندس تنفيذ المواقع، والمشرف على الصيانة، والمدرس الذى يقوم بالتدريس الجامعى، والباحث الذى يهتم بكتابة المؤلفات الجديدة عن هذا الحقل، والاستشارى الذى يساهم فى تطوير القوانين واللوائح والإرشادات التطبيقية، والناقد الذى يساهم بالنشر والكتابة فى المجلات العلمية والتحكيم فى المسابقات المحلية والدولية.

وما من شك أن مسؤولية حقل تصميم المواقع أثقل من الماضى؛ لأنه تطور وأصبح فنًّا اجتماعيًّا ملتزمًا ومرتبطًا باحتياجات المجتمع كوحدة، ولأنه يواجه التحدى الصعب فى خلق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يومًا عن يوم والبيئة الطبيعية التى تتلاشى تدريجيًّا إذا لم يحسن التخطيط لها.

حقل عمارة البيئة

أصبحت مسؤولية مهندس عمارة البيئة أثقل من الماضى؛ لأن عليه حل مشاكل بيئة عمرانية معقدة، وأعداد كثيفة من سكان المدن المعاصرة.

وقد كان مصمم المواقع فى الماضى يلبى متطلبات أفراد قلة فى دورهم وقصورهم، بينما تقع عليه اليوم مسؤولية أن يحل مشاكل بيئة متكاملة معقدة وأعداد كثيفة من السكان فى التجمعات الحضرية؛ ولهذا يعتقد الكثيرون فى أنه قد يكون من الصعب الاعتماد على الجامعات وحدها لإعداد الشباب العربى لمزاولة مهنة تصميم المواقع دون تمهيد أو خلفية سابقة. ولذا يحسن البدء بتلقين مبادئ احترام الطبيعة وفهم الظواهر البيئية المختلفة فى المراحل السابقة للتعليم الجامعى (الابتدائية ـ الإعدادية ـ الثانوية)، فهذا الحقل من المعرفة ما هو إلا فن بشرى يعتمد على البديهيات، وعلى استيعاب تراث حضارى مرتبط بالوطن العربى، ولا شك أنه من الممكن تبسيط قواعد هذا العلم مثلما حدث الآن مع علوم الرياضة والفضاء والذرة، بحيث يكتسب أطفالنا وشبابنا تدريجيًا قدرات التفكير المتأنى، وثمار النظرة الموضوعية الشاملة؛ وبذلك ترتفع ثقافتهم العامة وسلوكهم الاجتماعى الملتزم نحو البيئة الطبيعية المحيطة بهم.

ولا شك أن دراسة وزيارة الشباب للحدائق الإسلامية الأثرية سيوفر فرصة نادرة لتأكيد بعض المبادئ العلمية والدينية والحقائق التاريخية، حتى يدركوا من خلال الخبرة الشخصية والزيارات الميدانية كيف استجاب أسلافنا لما حث عليه الدين الإسلامى من

الإبداع وتحسين العمل وعمارة الأرض، كما ذكر الحديث الشريف: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**». إن الإبداع فى تشييد حديقة أو مبنى أو بستان هو انعكاس للتعاليم الإسلامية عندما تصبح أسلوب حياة، وتصبح ممارسة المهنة نوعًا من العبادة والجهـاد من وجهة نظر تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد أدرك الفنانون المسلمون هذا المنظور الروحانى للفنون؛ فأفرغوا أجمل ما أبدعتـه عبقريتهم فى العمارة تصميمًا وزخرفة وبناءً، وجودوا القرآن بأجمل الأصوات وأروع الترتيلات، وحسنـوا الخط العربى بأجمل ما أنتجتـه أيديهم نقشًا وتكوينًا، ونسجوا السجاجيد بأبرع الألـوان وأرقـى التشكيلات، وصمموا الحدائق وشيدوا البساتين باحترام لا يخفى للبيئـة الطبيعيـة وعزيمة لا تنقطع لمهمـة مقدسة وهى عمارة الأرض، ودور خالد كخليفة للمولى جل وعلا، وعشق لا يفنى للفردوس الموعود بما يحوى من جنات وعيون وجداول وأعراش ومروج ورياض وكروم وبسـاتين وأنهـار وأزهار، وطيور، وفواكه وظل ظليل وأغصان وارفة، وطيور صادحة، ونفوس مطمئنة وأرواح راضية مرضية.

وأخيرًا، فلعل هذه الجهود البناءة لمدارسة الحديقـة الإسلامية عبر التاريخ وعلاقتها بتطوير وتحسين واقع المدينـة العربية اليوم، لعله يكون طالع خير لأبناء هـذه الأمة، ولعل الوقت قد حان للشعوب العربية عامة فى تحقيق آمال السكينة والصحة والسلامة فى مدائنهـا وقراها، ولعلنا جميعًا نستلهم فـى هـذه الجهود نفحات الشرق بما يوحيه من جمال بيئته الخاصـة وتاريخه الملىء الممدود.

ولعل الناس حين يبحثون عن سعادة العيش وغبطة الحياة يستعينون عليها بمختلف الفنون الجميلة، ولعلهم يجدون من فن عمارة البيئة ومن ذكريات الحديقة الإسلامية أوسع نافذة لاسترواح المتعـة والاطمئنان، ولتذوق الحياة الجميلة الوادعة.

صفى الدين عبد الحميد حامد

يوليو ٢٠٠٨

لوبوك ـ تكساس

الولايات المتحدة الأمريكية

المراجع

١- مراجع البحث العربية

١ - الجاك، سناء: «الحديقة الأندلسية: هندسة ترويض الطبيعة»، من كتاب شجرة الكون لمحى الدين بن عربى، جريدة الشرق الأوسط.

٢- الفاروقى، إسماعيل: «الإسلام وفن العمارة» ـ مارس ١٩٧٨.

٣- المحرر: «الزراعة والنباتات فى الأندلس» ـ جريدة الشرق الأوسط ـ ٢١ فبراير ١٩٩٣.

٤- الغسانى، أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الغسانى (الشهير بالوزير): «حديقة الأزهار فى ماهية العُشب والعقار» ـ دار الغرب الإسلامى، حققه محمد الأعرابى الخطاب.

٥- إقبال، محمد: «جناح جبريل» ـ دار ابن كثير، دمشق ٢٠٠٥.

٦- حامد، صفى الدين ـ دور مصمم المواقع فى تطوير المدينة العربية، من كتاب «المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضارى الإسلامى» ـ المعهد العربى لإنماء المدن بالرياض ١٩٨٢.

٧- حمودة، عبد العزيز: اللغة العربية بيت الكينونة ـ جريدة الأهرام ٩ ديسمبر ٢٠٠٣.

٨- سراج الدين، إسماعيل: «التجديد والتأصيل فى عمارة المجتمعات الإسلامية» ـ جائزة الأغا خان للعمارة، جنيف ١٩٨٩.

٩- شتا، إبراهيم الدسوقى (ترجمة وشرح): «مثنوى مولانا جلال الدين الرومى» ـ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.

١٠- عبد الحميد، بندر: «قصص عن الحمراء بلغة ألف ليلة وليلة» ـ جريدة الشرق الأوسط.

١١- عبد الحميد، سعد: «العمارة والفنون فى دولة الإسلام» ـ دارالكتاب العربى، القاهرة ١٩٨٦.

١٢- عجوة، عماد «الحدائق والبساتين: مكانة عظيمة فى تراثنا»، www.ikhwanonline.com

١٣- قطب، سيد: «فى ظلال القرآن» ـ دار الشروق، القاهرة ١٩٧٩ .

١٤- قطب، محمد: «منهج الفن الإسلامى» ـ دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣

١٥- مكارم، مى: «الأندلس رائدة فى الزراعة علمًا وتطبيقًا» ـ صفحة (٩) ـ جريدة الشرق الأوسط، ٢١ فبراير ١٩٩٣.

١٦- موسى، محمد العزب: «من لاهور إلى موهانجو» ـ جريدة الأخبار، ٥ نوفمبر ١٩٨٥.

١٧- ابن عربى، محى الدين: «شجرة الكون» ـ مكتبة عالم الفكر، القاهرة ١٩٨٧.

٢- مراجع البحث الأجنبية

- Al Faruqi, I. and Al Faruqi, L., **The Cultural Atlas of Islam**, New York: MacMillan Publishing Company, 1986.
- Ali, A. Yusuf (Translator), **The Holy Quran**, Muslim Students Association, 1975.
- Bianca, Stefano (Ed), **Karakoram: Hidden Treasures in the Northern Areas of Pakistan, Geineve: Age Khan**, Trust for Culture, 2005.
- Boortin, Daniel, U.S. News & Wold Report, March 5, 1984, page 73, History Teaches We Don't Know What We Think We Know
- Brookes, John, **Gardens of Paradise: The History and Design of the Greart Islamic Gardens**, New york: New Amsterdam Book, 1987.
- Carrol, David, et al, **The Taj Mahal**, New York: Newsweek Book Division, 1972.
- Chebel, Malek,**Sybmols of Islam**, New York: Barnes & Noble Books,
- Compton, Linda Fish, **Andalusian Lyrical Poetry and Old Spanish Love Songs: The Muwashshat and Its Kharja**, New York: New York University press, 1976.

- Conan, Michel, ed., **The Middle East Garden Traditions, Unity and Diversity: Questions, Methods, and Resources in a multicullitural Perspectives, Washington**, D.C.: Dumberton Oaks, 2007.
- Crowe, Sylvia and Sheila Haywood, **The Gardens of Mughul India**, London: Thames and Hudson, 1972.
- Dozy's R., **Histoire de L'Afrique du Nord et le Mughrib**, new edition, 1849.
- Eckbo, Garrett, **The Landscape We See**, New York: McGraw Hill, 1969.
- Evans, Arthur S., **Persian Gardens: Landscape Architecture in Iran**, Unpublished Master's Thesis, California State Polytechnic University, Pomona, 1977.
- Foltz, Richard, **Spirituality in the Land of Noble**, Oxford: Oneworld Publisher, 2004.
- Grabaer. Oleg, **The Formation of Islamic Art**, 1973, New Haven: Yale University press.
- Gross, Barry and Michael, Saudi Aramco World, July / August 2006, «A Virtual Tour: The Alhambra».
- Hamed, S., «Problems of Urban Settlements in the Desert Environment, **Qatar National Museum Journal**,(Arrayan, No 1, Fed. 1978) pp.5 - 17.
- Hamed, Safei-Eldin, The Arid Lands Newletter, Fall / Wintr 1994, Issue No. 26, «Historical Gardens of the Arid Middle East», Tuscon: University of Arizona Press.
- Irving, Washington, **the Alhambra**, New York Crescent Books, 1979 (2nd Edition).
- Jellicoe, et al, **The Oxford Companion to Gardens**, Oxford, UK: University Press, 1986.
- Jellicoe, Geoffrey and Susan, **The Landscape of Man**, London: Thames and Hudson, 1975.
- Lehrman, Jonas, **Earthly Paradise: Garden and Courtyard of Islam**, University of California Press, 1980.
- Lesiuk, Stephen M., EKISTICS:280, Jan/Feb1980, pp.66 - 68, «Landscape Planning for Energy Conservation in the Middle East».
- MacDougall, E.and Ettinghausen, R.(Eds), **The Islamic Garden**, Washington, D.C., 1976.
- McHarg, Ian, Design with Nature, Gardeb City, NY: Doubledoy/Natural History Press, 1969.
- Moore, Charles W.,et al, **The Poetics of Gardens**, 1988.
- Moynihan, Elizabeth B., **Paradise as a Garden in Persia and Mughul India**, 1980.
- Newton,Norman T., **Design on the Land**, Cambidge, Massachusetts: The Belknp Press of Harvard University Press, 1971.

- Oldham, John and Ray, **Gardens in Time**, Sydny: Lansdowne Press, 1980.
- Ruggles, D. Fairchild, **Islamic Gardens abd Landscapes**, Philadelphia: University of Pennsylrania Press, 2000.
- Porter, Y .and Theven, A., **Palaces and Gardens of Persia**, Paris: Flammarion, 2003.
- Pratt, Beth, The Lubbock Avalanche-Journal, 2003, "Earthly Paradises: Islamic gardens find inspiration in the Quran".
- Qutb, Sayyid, **In the Shade of the Quran**, Vol. 30, MWH London: Publisher, 1979. Ruggles, D. Fairchild, **Gardens , Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain**, miversity Park: Penn State University Press, 2000.
- Stewart, Diversity, et al, **The Alhambra**, New York: Newsweek Book Division, 1974.
- Thackrt, Christopher, **The History of Gardens**, California: University of California Press 1979.
- Tobey, g. b., **A History of Landscape Architecture, The Relationship of People to Environment**, New York: American Elsevier Publishing Co., Inc., 1973.
- Von Hantelmann, Editor, **Gardens of Delight**, Köln, Germany: DuMont Buchverlag Publishing, 2001.
- Wescoate, James, Landscape Journal, "Landscapes of Conquest and Transformation: Lessons from Earlies Mughal Gardens in India: 1526-1530".
- Wescoat, James, Emironmental Design Jowrnal of the Islamic Environmental Design Research Center "Early System in Mughal India, (Rome) 2 (1985).
- Yassavoli, J., **The Fabulous Land of Iran**, Tehran: Yassavoli Publications, 2001.

٣-المواقع الإلكترونية ـ Web Sites

- http:// www.arcworld.org/ projects.asp
- http:// www.adab.com
- http://www.alhambra.org
- http://www.andalucia.com
- http://www.gardenvisit.com

نبذة عن المؤلف

الأستاذ صفى الدين حامد هو أستاذ العمارة والتخطيط البيئى بجامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد عمل الدكتور صفى الدين مستشارًا فى التنمية الدولية والتعمير لدى العديد من المنظمات العالمية مثل البنك الدولى، ووكالة المعونة الدولية، ومؤسسة أغا خان للتنمية، وهيئات حكومية مثل وزارة الخارجية الأمريكية، ووزارة حماية البيئة الأمريكية، وهيئات المتنزهات الوطنية بكندا، ومجلس التعاون الخليجى، والهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، ومجلس شؤون البيئة باليمن، ووزارة السياحة المصرية، والمعهد العربى للإنماء فى ليبيا.

وللدكتور صفى الدين العديد من المؤلفات فى حقول العمارة والتخطيط وإدارة البيئة، أهمها كتابه الصادر عام ٢٠٠٢ عن دار النشر الأمريكية «أودين ميلين ـ Edwin Mellen» بعنوان «التخطيط البيئى للأقاليم الصحراوية فى الشرق الأوسط ـ Landscape Planning for the Arid Middle East»، كما ساهم فى كتابة مجموعة كتب سياسية صادرة فى العالم العربى منها: «الإسلام فى أمريكا»، و«قارعة سبتمبر»، و«الإمبراطورية الأمريكية»، وقد صدرت الكتب الثلاثة عن مؤسسة الشروق الدولية.

والمؤلف حاصل على بكالوريوس اهندسة المعمارية من جامعة القاهرة، والماجستير من جامعة جورجيا، والدكتوراه من جامعة فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد قام بالتدريس فى جامعات نوفاسكوشيا، وميريلاند، وفرجينيا التقنية، وجورجيا، وتكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، وجويلف فى كندا.

وقد أسس الدكتور صفى الدين فى عام ١٩٧٧ قسم عمارة البيئة بجامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية وهو البرنامج الأول من نوعه بالجامعات العربية.